

د. سعد بوفلاقة:

قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عنابة - الجزائر

عاتكة بنت زيد الشاعرة :

زوجة الشهداء

هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، أخت سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، كانت على جانب كبير من الجمال وحسن الخلقة، ساحرة جذابة، تأخذ بمجامع القلوب، وتسلب الحليم عقله، فتدعه هائما، كما كانت ذات خلق حسن، ورجاحة عقل، وجزالة رأي، وفصاحة لسان، وبلاغة وبيان، تزوجها عبد الله بن أبي بكر الصديق، فأخذ بها، وشغلته عن مغازيه ومعاشه وتجارته، فمر عليه والده (أبو بكر) - رضي الله عنه - في داره، في أحد أيام الجمع ليمضيا معا إلى الصلاة، فسمعه من أسفل الدار، وهو في عليه، يناغي عاتكة، ويحدثها حديثا لطيفا معسولا، فتركهما ومضى، صلى ثم رجع، فوجده لا يزال يناغيها، فقال له: يا عبد الله، أجمعت؟ قال: أو صلى الناس؟ قال: نعم، ثم قال له والده (أبو بكر): قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة، وقد ألهمتك عن فرائض الله، طلقها، فطلقها⁽¹⁾، وذات ليلة بينما كان أبو بكر يصلي على سطح

داره، إذ سمع عبد الله يقول:

أعاتك لا أنساك ما نر شارق و ما ناح قمري الحمام المطوق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة لديك بما تخفي النفوس معلق
لها خلق جزل و رأي ومنطق وخلق مصون في حياء و مصدق
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير شيء تطلق⁽²⁾

حينئذ أدرك أبو بكر ما يجيش في نفس ولده، وما يتأجج في فؤاده، فرق له، وأشفق عليه، وأمره بمراجعتها، فقال عبد الله: أشهدك أنني قد راجعتها ومن شدة فرحه اعتق غلامه أيمن، قائلا له: أنت حر لوجه الله⁽³⁾ يا أيمن أشهدك أنني راجعت عاتكة، ثم خرج يجري إليها، وهو يقول:

أعاتك قد طلقت في غير ريبة وروجعت للأمر الذي هو كائن
كذلك أمر الله غاد و رائح على الناس فيه ألفة و تباين
و مازال قلبي للتفرق طائرا وقلبي لما قد قرب الله ساكن
ليهنك أني لا أرى فيك سخطة وأنت قد تمت عليك المحاسن
فإنك ممن زين الله وجهه وليس لوجه زانه الله شائن⁽⁴⁾

ثم وهبها حديقة له، واشترط عليها ألا تتزوج أحدا بعده، فلما قتل بالسهم الذي أصابه بالطائف⁽⁵⁾، جزعت عاتكة جزعا شديدا، وتأثرت كثيرا لموته، و بكته بكاء مرا، فقالت:

رزئت بخير الناس بعد نبهم و بعد أبي بكر و ما كان قصرا
 فله عينا من رأى مثله فتى أكر و أحمى في الهياج و أصبرا
 إذا شرعت فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك الرمح أحمر
 فأقسمت لا تنفك عيني سخينة عليك، و لا ينفك جلدي أغبرا
 مدى الدهر ما غنت حمامة أيقة وما طرد الليل الصباح المنورا⁽⁶⁾

ثم خطبها عمر بن الخطاب⁽⁷⁾، إلا أن الشرط الذي اشترطه عليها عبد الله بن أبي بكر، حين راجعها ووهبها الحديقة؛ في أن لا تتزوج أحدا بعده، قد كان عائقا، فقال لها عمر: استفتي: فاستفتت علي بن أبي طالب، فقال: ردي الحديقة على أهله وتزوجي، ففعلت، ثم تزوجت عمر سنة اثنتي عشرة من الهجرة فأولم عمر ودعا أصحاب رسول الله (ص)، وفيهم علي بن أبي طالب، فقال علي لعمر: دعني أكلم عاتكة، إن لي حاجة أريد أن أذكرها إياها فقل لها تستتر، فقال لها عمر استتري يا عاتكة فإن عليا يريد أن يكلمك، فاستترت، فقال لها: ألسنت القائلة؟.

فأقسمت لا تنفك عيني سخينة عليك، و لا ينفك جلدي أغبرا

يذكرها برثائها لعبد الله ويعيرها بنقضها للعهد، فخجلت، فأطرقت، فبكت، فقال عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن، كل النساء يفعلن هذا، فقال علي: حاجة في نفسي قضيتها.

ولما قتل عمر بن الخطاب، قالت تبكيه:

وفجعتني فيروز⁽⁸⁾ لادرده بأبيض تال للكتاب منيب
رعوف على الأدني غليظ على العدا أخي ثقة في النائبات مجيب
متى ما يقل لا يكذب القول فعله سريع إلى الخيرات غير قطوب⁽⁹⁾

وقالت فيه أيضا :

عين جودي بعبرة و نجيب لا تملي على الإمام النجيب
فجعتني المنون بالفارس المع لم يوم الهياج والتليب
عصمة الله و المعين على الدهر وغيث الملهوف والمكروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قد سقته المنون كأس شعوب⁽¹⁰⁾

فبعد أن ذكرت فيروز قاتل زوجها في المقطوعة الأولى، الذي فجعها بأمير المؤمنين، الرؤوف على الأهل، الغليظ على الأعداء، الصادق القول، السريع إلى الخير، تنادي في المقطوعة الثانية عيناها، وتطلب منها ألا تمل من البكاء و النحيب على الإمام الأمين الذي انتزعه الموت فجأة وقد كان يدافع عن الملهوف والمكروب والمحروم، ويحمي الناس من نائبات الدهر، فبعده لن يكون للفقراء والبؤساء نصير، وقد ظلت الشاعرة تذرف الدموع، وتتفجع، وتأرق الليالي، فلا يعرف النوم سبيلا إلى عينيها حزنا وهما على فقدتها أمير المؤمنين إذ تقول:

منع الرقاد فعاد عيني عيد⁽¹¹⁾ مما تضمن قلبي المعمود
ياليلة حبست علي نجومها فسهرتها والشامتون هجود

قد كان يسهرني حذارك مرة فاليوم حق لعيني التسهيد
أبكي أمير المؤمنين و دونه للزائرين صفائح و صعيد⁽¹²⁾

وفي إحدى تلك الليالي حلمت حلما مخيفاً، إذ تمثلت لها صورة أمير المؤمنين
عمر، مسجى في أكفانه، فعاودها حزنها وأرقها، فقالت:

من لنفس عادها أحزانها ولعين شفاها طول السهد
جسد لف في أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد
فيه تفجيع لمولى غارم لم يدعه الله يمشي بسبد⁽¹³⁾

ولما انقضت عدتها خطبها الزبير بن العوام، فتزوجها وكان غيورا عليها، فقال لها
يوماً: لا تخرجي إلى المسجد... فقالت: يا ابن العوام، أتريد أن أدع لغيرتك
مصلى، صليت فيه مع رسول الله (ص)، وأبي بكر، وعمر؟ فقال: لا أمنعك، فلما
سمع النداء لصلاة الصبح، توضأ، وخرج، فكمن لها في سقيفة بني ساعدة، فلا
مرت، ضرب بيده على جسدها واختفى، فقالت: مالك قطع الله يدك ورجعت إلى
بيتها، فلما عاد الزبير من المسجد، قال لها: مالي لم أرك في مصلاك؟ قالت:
يرحمك الله أبا عبد الله، فسد الناس بعدك، الصلاة اليوم في القيطون⁽¹⁴⁾ أفضل
منها في البيت، وفي البيت أفضل منها في الحجرة⁽¹⁵⁾، ولم تعد تخرج بعد ذلك
اليوم إلى الصلاة في المسجد، ولما قتل الزبير عنها، رثته، فقالت:

غدر ابن جرموز بفارس بهمة يوم اللقاء وكان غير معرد⁽¹⁶⁾
يا عمرو لو نبهته لوجدته لا طائشا رعرش الجنان، ولا اليد

كم غمرة قد خاضها لم يثنه عنها طرادك يابن فقع القردد⁽¹⁷⁾
 ثكلتك أمك إن ظفرت بمثله ممن مضى ممن يروح و يغتدي
 والله ربك إن قتلت لمسلما حلت عليك عقوبة المتعمد⁽¹⁸⁾

وقد ذكرت الشاعرة في هذه الأبيات عمرو بن جرموز الذي غدر بالزبير، حيث قتله غيلة، ومن ثم تستنزل اللعنة على القاتل، وتصف المقتول بالفارس الشهم، الجسور.

ولما أرسل عبد الله بن الزبير إليها يصالحها في إرثها من والده، صالحتة، وقالت له: « ما كنت لتبعث إلي بشيء إلي قبلته، فبعث إليها بثمانين ألف درهم، فقبلتها، وصالحت عليها»⁽¹⁹⁾.

ثم خطبها علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - بعد انقضاء عدتها من الزبير، فأرسلت إليه، إني لأضن بك يا ابن عم رسول الله (ص) عن القتل⁽²⁰⁾ فأخذ برأيها ولم يتزوجها، ثم كان يردد بعد ذلك: « من أحب الشهادة الحاضرة فليتزوج بعاتكة»⁽²¹⁾.

ثم تزوجها الحسين بن علي بن أبي طالب، فكانت أول من رفع خده من التراب يوم قتل، ولعنت قاتله، وقالت ترثيه:

وحسينا فلانسيت حسينا أقصدته أسنة الأعداء
 غادروه بكربلاء صريعا جادت المزن في نرى كربلاء⁽²²⁾

ثم تأيمت بعده، وتوفيت نحو سنة أربعين للهجرة حسب رواية الزركلي⁽²³⁾، ولكن

يبدو أنه وهم لأن المصادر الأخرى⁽²⁴⁾، ذكرت بأن عاتكة رثت زوجها الحسين الذي استشهد في كربلاء سنة 61هـ، وبذلك تكون وفاتها في هذه السنة أو بعدها. يبدو من خلال المقطعات الشعرية التي وصلتنا من شعر عاتكة، أنها طرقت فنا واحدا من فنون الشعر المعروفة، ألا وهو فن الرثاء، وهو الغرض الذي يناسب حياتها الحزينة، إذ كانت كلما تزوجت صحابيا إلا وكانت نهايته الشهادة، لذا عبرت من خلال مراثيها عما يختلج في نفسها من أحاسيس الحزن والألم، ورثاؤها في مجمله يميل إلى التأبين والعزاء، وتشيع فيه المعاني الدينية وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، كما نلاحظ في رثائها جزالة الألفاظ، ووضوح المعاني، وصدق العاطفة، لأن شعرها صادر من قلب مقروح، وعاطفة مكلومة، ونفس حزينة، فالشاعرة أصيبت في أزواجها، فترجمت، بقلب مفجوع حالتها، وتركت نفسها الشاعرة على سجيته، دون مبالاة بالانتميق والزخرفة إلا ما جاء عفواً الخاطر.

هوامش ومراجع :

- 1- الأصفهاني: الأغاني مج 18 ص: 8، وانظر أيضا: ابن حجر: الإصابة، ج4، ص: 346، وابن سعد: الطبقات مج8، ص: 265 و ما بعدها.
- 2- الأصفهاني : المصدر نفسه، ص: 8 و 9. وانظر أيضا: ابن حجر : المصدر نفسه ج 4، ص: 346 وذو شارق: طلعت الشمس وأشرقت.
- 3- الأغاني: مج18، ص 9 و الإصابة: ج4، ص 355.
- 4- الأغاني: مج 18 ، ص 9.

- 5- الطائف: تقع في الإقليم الثاني، وعرضها إحدى وعشرون درجة، وبها عقبة، وهي على مسيرة يوم للطالع من مكة، و نصف يوم للهابط من مكة، عمرها حسين بن سلامة و سدها ابنه وهو عبد نوبي وزرلابي الحسين بن زياد صاحب اليمن في حدود سنة 430 م، ولما جاء الإسلام، افتتحها رسول الله (ص) سنة تسع من الهجرة، وقد شهد عبد الله مع رسول الله (ص) غزوة الطائف فأصابه سهم فمات منه، بعد ذلك في المدينة (أنظر: الحموي: معجم البلدان، مج 4، ص: 8).
- 6- الأصفهاني: المصدر السابق والصفحة نفسها وابن قتيبة: عيون الأخبار، ج 4، ص 144 وأبو تمام: الحماسة، مج 3، ص: 70. و القرطبي: الاستيعاب، ج 4، ص: 355. (مع الاختلاف في ترتيب الأبيات وعددها)
- 7- الأغاني، المصدر السابق. ويذكر القرطبي أن الذي تزوجها بعد عبد الله هو: زيد بن الخطاب ثم قتل عنها يوم اليمامة شهيدا (الاستيعاب، ج 4، ص: 355).
- 8- فيروز: هو أبو لؤلؤة المجوسي قاتل عمر بن الخطاب: (المصدر نفسه، والصفحة نفسها).
- 9- الحصري القيرواني: زهر الآداب، ج 1، ص: 37 و 74-75، وعمر رضا كحالة: أعلام النساء، ج 3، ص: 203.
- 10- الأغاني: مج 18، ص 10، والحصري القيرواني: المصدر نفسه، ص 36، 37 والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص 137 و القرطبي: المصدر نفسه ص: 336 (مع الاختلاف في بعض المترادفات).
- 11- العيد: من معانيه: ما اعتاد من هم أو مرض أو حزن أو نحوه، و هو المقصود هنا.

- 12- الأصبهاني: المصدر السابق، مج 18، ص: 10-11.
- 13- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة/ مج2، ص: 1106-1107. والسبد: القليل من الشعر، يقال: "ما له سبد ولا لبد". أي لا شعر و لا صوف. يقال: لمن لا شيء له، و قولها: لم يدعه الله يمشي بسبد: تريد أفقره الله، فلم يبق له شيء.
- 14- القيطون : المخدع.
- 15- الأصبهاني : الأغاني ، مج 18، ص 11.
- 16- البهمة : الشجاع.. و المعرد : الذي يهرب ويفر من الحرب.
- 17- الفقع : البيضاء الرخوة من الكمأة، و القردد: ما ارتفع و غلظ من الأرض.
- 18- القرطبي: الاستيعاب، ج4، ص: 356. و انظر الوشاء: المصدر السابق، ص: 121.
- 19- القرطبي : المصدر نفسه، ص : 356-357.
- 20- القرطبي : المصدر نفسه، ص : 356.
- 21- الحصري القيرواني: زهر الآداب، ج1، ص: 75. وقيل: إن عبد الله بن عمر هو الذي قال: "من أراد أن يكون شهيدا فليزوج عاتكة بنت نفيل". أنظر الحماسة البصرية، ج 1، ص: 204.
- 22- الأصبهاني: المصدر السابق، مج18، ص : 11-12. وانظر الحسن البصري : الحماسة البصرية، ج1، ص : 204. والحموي : معجم البلدان مج4، ص: 445.
- 23- الأعلام، مج3، ص: 242.
- 24- الأصبهاني: المصدر السابق ص: 11-12. و الحسن البصري: المصدر السابق، ج1، ص: 204 والحموي: المصدر نفسه، والصفحة نفسها